مجلة كلية
الدعوة الإسلامية
مجلة إسلامية - ثقافية - جامعة - محكمة

العدد
الخامس عشر
1998

1428 من ميلاد الرسول صلى الله عليه وسلم 1998 أفرنجي

المسؤولية الأخلاقية والدينية للخلفاء الراشدين تجاه الرعية

الدكتور : خليل شاكر حسين الزبيدي
جامعة الفاتح - كلية التربية

مقدمة

اعتمد الخلفاء الراشدون في ممارسة الحكم على المبادىء الإسلامية التي نهلوها من الرسول ﷺ. فلا غرابة أن نجد تمسك الصحابة الكرام بأهداب الدين الحنيف، وحرصهم على المضي في طريق بناء الدولة العربية الإسلامية الفتية التي أسسها الرسول الكريم ﷺ هو من باب المسلّمات التي لا تقبل الجدل.

إن الامتحان الذي مرّ به الصحابة الكرام في تطبيق مبادىء الإسلام العظيم كان عسيراً خاصة عند ممارستهم للسلطة. لقد كان امتحاناً للنفس المسلمة

ومحكاً للمبادىء أمام التطورات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي مرّت بهم خلال سنوات حكمهم.

لذا فإن الخلفاء الراشدين كانوا أمام اختبار قاس وتحدٍّ كبير وهم يواصلون عملية بناء الدولة العربية الإسلامية بعد وفاة الرّسول ﷺ. لقد واجه الصحابة عوامل شتى تحدّتهم في تلك التجربة العظيمة التي خلقت للعرب دولة وكياناً حضارياً ودوراً ريادياً في العالم آنذاك.

لقد واكب الصحابة مراحل الدعوة الإسلامية في مكّة، ومن ثم في المدينة حيث كان الصحابة يستهدون بشخص الرّسول الكريم ﷺ وبقيادته التاريخية، وأسلوبه في صنع القرار ومعالجة الأزمات والمشكلات التي عصفت بدولة الإسلام وهي غضّة العود.

كان النبي ﷺ يعد الصحابة لدور مستقبلي مهم في قيادة المسلمين ودولتهم. وقد نجح الرّسول ﷺ في خلق رجال أكفاء لمسؤولية سياسية مستقبلية، وهذا هو سر تغلّبهم على المحنة والأزمة التي واجهتهم، خاصة بعد لحاق النبي ﷺ بالرفيق الأعلى.

لم يحدث في تاريخ البشرية أن ينجح صاحب دعوة وفكرة في بناء الدولة النموذج، وأن يرعاها ويتعهدها بالاهتمام بتنشئة رعيل من القادة المؤمنين بذلك الفكر الإسلامي، وهو مطمئن إلى أن غرسه لن يموت، وأن جهوده لن تضيع وتصبح سدى بعد موته.

واصل الصحابة المسيرة بعد وفاة نبيهم وقائدهم لأنهم أساساً كانوا معدّين لمثل هذا الدور ولتلك المهام الخطيرة من خلال مواصفاتهم القيادية، وقد صدق الرّسول ﷺ حينما قلّد كل واحد من الصحابة بوسام عرف به من بين أقرانه الأفذاذ.

الخلفاء الراشدون وممارسة السلطة:

الدّين هو النصيحة كما وصفه الرّسول الكريم ﷺ[1]. وقد أخذ الصحابة

(1) الأربعين النووية، حديث رقم 35، مطبعة الحلبي، القاهرة، بلا. ت، ص64.

الكرام عنه هذه المبادىء وطبّقوها، وأصبحت ممارسة يومية ومبدأ يسيرون عليه راعياً ورعية. وقد عبّر الرّسول ﷺ عن الصلة الوثيقة بين الحاكم ورعيته بقوله: **«كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته»**[2] فجعل النبي ﷺ ممارسة الحكم مسؤولية مشتركة بين الحاكم وهو الراعي لمصالح وشؤون الرعية، والمحكومين الذين ليس من واجبهم الطاعة والمطالبة بحقوقهم وحسب، وإنما مراقبة الحاكم وتقديم النصيحة المخلصة والرأي السديد له، وأن يأخذوا على يده إن هو ابتعد عن الطريق القويم في ممارسة السلطة. ففي دولة الإسلام، شاهد المسلمون النبي ﷺ وهو يراجع نفسه ويحاسبها إن صدر منه ما يمس المسلمين. وكان يطلب من صاحب المظلمة أن يأخذ حقّه من أي شخص مهما علت منزلته وكبر مقداره. وكان الرّسول ﷺ يهدف إلى إعطاء القدوة الحسنة والنموذج الذي يجب أن يقتدى به كما نص على ذلك القرآن الكريم: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾[3].

وكان الصحابة الكرام من المنتمين إلى الحلقة القريبة لشخص الرّسول محمّد ﷺ يحرصون على التأسي بأفعاله وأقواله، وكانوا يعدون طاعة الرّسول ﷺ تقرّباً لله عملاً بقوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ . .﴾[4].

وتأسيساً على ذلك، فإن الخليفة أبا بكر الصدِّيق رضي الله عنه، كان من الرجال الذين أحبّوا اقتفاء أثر رسول الله ﷺ وإطاعة أوامره ونواهيه حياً وميتاً، ولا عجب أن نراه يقول: «إنما أنا متبع ولست بمبتدع»[5].

وعندما تولى أبو بكر الصدِّيق الخلافة عام 11هـ أوضح سياسته المستقبلية في خطبته الأولى التي تعد منهجاً سياسياً للحكومة الإسلامية في عهده. قال الخليفة الراشد الأول: «أطيعوني ما أطعت الله ورسوله. . . القوي منكم عندي

---

(2) المستدرك على الصحيحين، ج1، ت: الحاكم النيسابوري، دار التراث العربي، القاهرة، بلا. ت، ص372.

(3) القرآن الكريم سورة الأحزاب، آية: 21.

(4) سورة النساء، آية: 59.

(5) الطبري (ت: 310هـ)، تاريخ الرسل والملوك، ج3، ت: محمّد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، 1979، ص224.

الضعيف والضعيف فيكم قوي عندي، الصدق أمانة والكذب خيانة»[6].

لقد عد أبو بكر الصدِّيق رضي الله عنه مسؤولية الحكم معادلة أخلاقية يمسك طرفيها الحاكم من جهة والرعية من جهة ثانية. فهو لم يعد نفسه مسؤولاً أمام الله عن أعباء الحكم فقط وإنما تقع المسؤولية في ممارسة السلطة على الرعية بتطبيق مبدأ النصيحة، وإسداء الرأي الصحيح للأمراء، وإقامة حدود الله بالعدل والمساواة، إذ لا فرق بين قوي وضعيف وغني وفقير أمام سلطة الدولة العربية الإسلامية.

وجاء عمر بن الخطّاب رضي الله عنه فأكّد ذات المبادىء التي أعلن عنها النبي ﷺ وصاحبه أبو بكر الصدِّيق رضي الله عنه، في أول خطبة له أمام أصحاب الحل والعقد من المهاجرين والأنصار بقوله: «إذا رأيتم فيّ اعوجاجاً فقوّموني»[7] وبهذا فإن الخليفة عمر رضي الله عنه قد سلّط الضوء على دور الرقيب الذي تمارسه الرعية في تصحيح وتقويم مسار الحاكم في ممارسة السلطة. ويعني هذا إشراك الجماهير في عملية الحكم، وهذا ما جعل طابع الحكومة الراشدية يصطبغ بالصبغة الجماهيرية والانتخابية المفتوحة.

وفي عهد الخليفة عثمان بن عفّان رضي الله عنه، مارست الجماهير سلطة الرقيب على الخليفة نفسه والولاة، وفي مرّات كثيرة كان الخليفة الراشدي الثالث يخضع لإرادة الرعية في عزل بعض الولاة وفي إقامة الحدود. ويمكننا تفسير ما حدث للخليفة عثمان رضي الله عنه بوصفه مظهراً من ممارسة الجماهير لدورها في الأحداث وصنع القرار ولو على شخص الخليفة.

ويمثّل عهد الخليفة علي بن أَبي طالب رضي الله عنه امتداداً لذلك النهج الذي سار عليه النبيّ ﷺ والشيخان أبو بكر الصدِّيق وعمر بن الخطّاب رضي الله عنهما، وعلى الرغم من الأحداث الخطيرة الشأن التي ألمّت بعهد الخليفة علي، والتي حالت دون تطبيق سياسته الإصلاحية بانقسام المسلمين إلى

---

(6) ابن الأثير، (ت: 630هـ)، الكامل في التاريخ، ج2، بيروت، 1965، ص332. ينظر كذلك: الطبري، المصدر السابق، ج3، ص210.

(7) الطبري، المصدر السابق، ج3، ص433.

معسكرين متحاربين، إلاّ أن الخليفة عليّاً رضي الله عنه تمكّن من تطبيق قِيَم العدالة ومبادىء الإسلام العظيم.

لقد كان الخليفة علي رضي الله عنه يتحرّى الحق والعدل في ممارسة الحكم، في ظروف صعبة أحوج ما يكون فيها إلى المرونة السياسية والنهج التوفيقي في إدارة شؤون المسلمين، لأن مثل تلك المرونة كان يراها من باب المداهنة في الدِّين والتفاق والمساومة على حساب المبادىء الإسلامية[8].

إن الذي يتابع سيرة الخليفة الراشدي الرابع تتملكه الدهشة أمام التمسّك الشديد للخليفة علي بمبادىء الإسلام، والتشدّد في تطبيقها ولو على حساب شخصه وهيبة المؤسسة السياسية. من هذا المنطلق وجهت المآخذ على سيرة الخليفة علي، وبمنظار دنيوي ضيّق، إلاّ أن الذي يدرس الخلفية الدينية وتشبع نفس الخليفة علي بمبادىء الإسلام لن يستغرب أبداً ذلك التمسك بالمبادىء والتشدّد الأخلاقي في ممارسة السلطة[9].

وكان الخليفة يردّد دائماً بأنه مسؤول أمام الله ما دام يتولى أمور المسلمين، وكانت إمرة المسلمين عند الخليفة علي لا تساوي عنده شيئاً ما دام لا يقيم حقاً وينزع باطلاً. وكان لا يرى نفسه خليقاً بمنصب الخلافة إن لم يشارك الرعية في شظف العيش وأتعاب الحياة وأوصابها[10].

الواقع التطبيقي للجوانب الأَخلاقية والدينية:

لم تحفل مدة زمنية في التاريخ العربي الإسلامي بشواهد غنية تخص خير الرعية بمثل ما زخر به عهد الخلفاء الراشدين الذين حرصوا على إقامة العدل وتطبيق مبادىء الإسلام العظيم.

---

(8) نفس المصدر السابق، ج4، ص440 وما يليها.

(9) ينظر رد الباحثة الإيطالية فاتيشيا فاكليري في مقالها «علي» في دائرة المعارف الإسلامية على مطاعن المستشرق هنري لامنس في كتابه «فاطمة وبنات محمّد» و«عصر الأمويين».

(10) نهج البلاغة، ج1، شرح الشيخ محمّد عبده، مكتبة النهضة، بغداد، 1984، ص80. يُنظر د. خليل شاكر حسن، الخلافة الراشدة، أطروحة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة إكس ـ بروفانيس، فرنسا، 1978.

إن المسؤولية التي ألقيت على عاتق هؤلاء الخلفاء لم تكن في نظرهم تباهياً أو امتيازاً يبعدهم عن الرعية. ولذلك فإن منصب الخلافة كان تكليفاً وليس تشريفاً، ذلك لأن الإسلام بوصفه مبادىء وفكراً لم يكن ليوجد من أجل التنظير الذي لا يمس الواقع المعيش، وإنما هو مبادىء سماوية هدفها خلق النموذج في الكيانات السياسية القائمة على العدل والمساواة والتكافل الاجتماعي والمُثُل والقِيَم، كما أكّد ذلك الرّسول ﷺ: «**إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق**»[11].

وما هو جدير بالقول في هذا الباب أن الأديان السماوية التي سبقت الإسلام لم توفق في إقامة دولة أو كيان أو نظام سياسي يستطيع تطبيق مبادىء السماء على الأرض كما نجح الإسلام بقيادة النبي محمّد ﷺ، وصحبه الكرام، رضي الله عنهم. وهو النموذج الذي بشّرت به كتب السماء السابقة لنزول القرآن الكريم. وقديماً قالوا إن العدل أساس الملك. وبعبارة أخرى إن الدول إذا ما أُريد لها الاستمرار ينبغي أن تقوم على مبادىء العدل. وذلك حلم وتلك أمان راودت فلاسفة العالم، وأشغلت الساسة منذ القديم وإلى وقتنا هذا. وتناولتها أقلام في شرق المعمورة وغربها، فأصبحت موضوعاً يمس الترف الفكري بقدر ما تمس الحياة المعيشة. وهكذا كانت الإنسانية قبيل ظهور الإسلام كيانات سياسية تدعي انتسابها إلى أديان سماوية وأخرى عزفت عن ذلك وتبنت فكر البشر. فلا نجحت هذه ولا وفقت تلك في إقامة مجتمع العدل والمساواة. وهذا الذي كان يؤرق صاحب الدعوة الإسلامية ﷺ، ويجعله ينزوي بعيداً عن مجتمع مكة التجاري الصاخب، مفكّراً في أمر هذه الإنسانية المعذبة[12].

وجاء الإسلام بمبادئه السماوية التي قلبت الموازين في جزيرة العرب والعالم كله. ووجدت الأنظمة والكيانات القائمة في مبادىء الإسلام خطراً على مصالحها فحاربته بكل ما أوتيت من قوة، ولكنها أرادت أمراً ومشيئة الله تريد أمراً آخر هو صلاح وخير الإنسانية. وامتد الصراع بين الإسلام وأعدائه واحد وعشرين عاماً إلى أن أذن الله بفتح مكة عام ثمانية للهجرة، فساد الإسلام

---

(11) الأربعين النووية، حديث رقم 23، ص35.

(12) ابن هشام (ت: 213هـ)، السيرة النبوية، ج1، القاهرة، 1955، ص201.

الجزيرة بمبادئه النيّرة وضرب الحق بجرانه. ولم تستطع قوى الردة أن تزعزع دولة العدل التي شيّدها الرّسول ﷺ بفضل تمسّك الصحابة بتجربة الإسلام العظيم، وتشدّدهم في مواصلة الدرب الذي بدأوه مع معلّمهم وقائدهم رسول الله ﷺ[13].

تولى أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه الخلافة في ظروف بالغة الخطورة. تمكّن خلالها أن يتغلّب على المصاعب التي واجهته الواحدة تلو الأخرى بنفسية المؤمن الصابر، كما عبّرت السيدة عائشة عن حزمه وشديد عزيمته بأن الذي نزل بأبي بكر رضي الله عنه من خطوب لو أنزلت على الجبال لهاضها[14].

وثمة أخبار تناقلتها ألسن الرواة تدلل على ديمقراطية مثالية لم تعهدها تجارب الأمم بأي حال من الأحوال، تلك الديمقراطية التي شادها الإسلام ورفع بنيانها الخلفاء الراشدون من بعد فترة التأسيس التي وضع لبناتها الرّسول الكريم ﷺ وعجزت الأنظمة الحديثة في قرننا هذا على الرغم مما تدعيه عن الإتيان بنموذج مماثل له.

بويع أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه في أوضاع حرجة وامتنع نفر من الصحابة عن مبايعته، بيد أنه لم يفرض عليهم بيعته أو يكرههم على الاعتراف به خليفة وإنما تركهم وهواهم واختيارهم دون تعنيف أو جبر وضغوط، ذلك لأن القرآن الكريم أكّد مفهوم الديمقراطية الحقّة البعيدة عن الزيف بقوله تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾[15]. وبناء عليه فإن هؤلاء الصحابة سرعان ما راجعوا أنفسهم وانضموا إلى جماعة المسلمين في مبايعة الخليفة الراشدي الأول[16].

وهناك موقف اختص به أبو بكر الصدّيق، وقد تمثّل في عظيم شعوره

---

(13) الطبري، المصدر السابق، ج3، ص230.

(14) السيوطي: (ت: 911هـ)، تاريخ الخلفاء، ت: محمّد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، القاهرة، 1952، ص27.

(15) سورة البقرة، آية: 256.

(16) الطبري، نفس المصدر السابق، ج3، ص246.

بالمسؤولية الدينية الملقاة على عاتقه، وقد امتاز هذا الموقف بالصرامة والحزم والثبات، ويكمن في مواجهته لموقف المرتدين. وكان هذا الخليفة المسلم يردد أمام مرأى المسلمين: «والله لو منعوني عقالاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله لقاتلتهم عليه. فهم يفرقون بين الصَّلاة والزَّكاة، والله لم يفرّق بينهما»[17]. وقد تحقق الصحابة من صدق موقف خليفتهم الذي يصبّ بالتالي في مصلحة دينهم الحنيف ودولتهم الفتية فوضعوا جل إمكاناتهم في القضاء على حركة الردّة.

ويطالعنا تاريخ هذا الخليفة بموقف يستحق الإعجاب، وهو ماش على رجليه مودّعاً ومسايراً لجيش الجهاد وقائده أُسامة بن زيد الذي كان راكباً دابته، وشاعراً بالحرج أمام إصرار الخليفة في مسايرة الجيش، وهو ماش توخياً لأجر الله أمام أنظار الجيش الذي يضم خيرة صحابة رسول الله ﷺ[18]. وتشاء الأقدار في عهد الخليفة عمر بن الخطّاب رضي الله عنه أن تقدّم لنا صورة للتواضع والأخلاق السامية في ممارسة الحكم، ويتمثّل ذلك في ظروف معركة القادسية في جبهة العراق، والخليفة عمر يترقب أنباء المعركة بلهفة شديدة، لأن أموراً كثيرة ومصائر تعتمد على نتائجها. وكان الخليفة عمر يضيق به المقام في المدينة فيضطر للخروج ماشياً أميالاً بعيداً عن المدينة متنسماً أخبار جبهة العراق الملتهبة. وذات يوم لاح راكب من جبهة العراق، وإذا به رسول القائد الصحابي سعد بن أَبي وقاص، رضي الله عنه، مبشّراً الخليفة عمر بالنصر والفتح، غير أن هذا الرَّسول لم يكن قد تعرّف على الخليفة من قبل، والخليفة يستعجله بالأسئلة حول أنباء القادسية وما آلت إليه الأمور هناك. ودخل الرجلان المدينة والرَّسول لا يعرف أن الرجل الذي يسايره وهو مسرع هو الخليفة عينه، بيد أنه تحقّق من ذلك عندما بدأ الناس يسلّمون على عمر بن الخطّاب بإمرة المؤمنين، عندها

---

(17) نفس المصدر، ج3، ص244.

ينظر: ابن قتيبة الدينوري: (ت: 276هـ)، كتاب الإمامة والسياسة المنسوب إليه، ج1، القاهرة، 1937، ص20.

وكذلك ينظر: البلاذري: (ت: 279هـ)، فتوح البلدان، دار مكتبة الهلال، بيروت، 1978، ص103.

(18) الطبري، المصدر السابق، ج3، ص226.

استحيا الرَّسول من تصرّفه إزاء الخليفة المتواضع، حيث بادر الخليفة بقوله حتى يستر حراجة موقفه: «سبحان الله يا أمير المؤمنين، ألا أعلمتني؟» إلاَّ أن الخليفة المتلهف لسماع أخبار انتصارات المسلمين كان في شغل عن مظاهر الأبهة الخداعة وعن زخرف الحياة الزائل، أجاب الرسول: «لا عليك» متناولاً كتاب الفتح والبشارة وقرأه على الناس[19].

وليس أدل من الشعور بالمسؤولية تجاه وحدة المسلمين الدينية من ذلك العمل الكبير الذي حقّقه أبو بكر وعمر رضي الله عنهما عندما ادلهمت الخطوب بالمسلمين في حروب الردّة، وتقديمهم التضحيات الكبيرة من أجل إعادة توحيد الدولة العربية الإسلامية، عندها وجد الصحابيان الجليلان أن عملية جمع القرآن أمر ضروري، تلك العملية التي تبنّاها بشكل رسمي الخليفة عثمان بن عفّان رضي الله عنه، وأنقذ المسلمين من غائلة الاختلاف في القراءات، حيث اعتمدت نسخة واحدة متفق عليها من لدن الصحابة، وأرسلت نسخ من مثلها إلى الأمصار[20].

وجاءت حروب التحرير وتوسعت رقعة الدولة العربية الإسلامية شرقاً وغرباً. وأصبح للعرب المسلمين ثغور بحرية في بلاد الشام ومصر وشمال إفريقيا. وكان لا بد من حمايتها من اعتداءات الروم المتربصين بالمسلمين، لا سيما أن الروم يمتلكون قواعد بحرية في جزائر البحر المتوسط. هناك أراد والي الشام معاوية بن أَبي سفيان القيام بحملات بحرية بقصد فتح الجزائر التي تشكّل خطراً على ممتلكات الدولة العربية، فطلب الإذن من الخليفة عمر بركوب البحر. وانطلاقاً من مسؤوليته بوصفه خليفة للمسلمين طلب معلومات حول ركوب البحر من والٍ آخر هو عمرو بن العاص، الذي صوّر للخليفة عمر مخاطر البحر، الأَمر الذي جعل الخليفة عمر يرفض بشكل قاطع طلب معاوية

(19) أَبو حنيفة الدينوري: (ت: 282هـ)، الأخبار الطوال، ت: عبد المنعم عامر، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، القاهرة، 1960، ص124.

(20) اليعقوبي، (ت: 292هـ)، كتاب التاريخ، ج2، دار صادر، بيروت، 1961، ص135. السيوطي، المصدر السابق، ص77.

بركوب البحر. وقد يفسّر تحذير والي مصر للخليفة الراشد أنّه من باب المنافسة الشخصية، حتى لا يكسب والي الشام مجداً بعمله المرتقب، إلاّ أن واقع الأشياء تؤكّد أن الخليفة عمر كان يهمه سلامة الرعية، ولم يكن يروم المجد الشخصي على حساب المسلمين[21]. وبتولي عثمان بن عفّان الخلافة أعاد معاوية بن أبي سفيان طلبه في ركوب البحر، بيد أن الخليفة عثمان كان متحفظاً إزاء طلب والي الشام، وأمام إلحاحه اشترط أن يصطحب قواد المسلمين بما فيهم معاوية زوجاتهم حتى لا يغامروا بأرواح المسلمين، وجاء ذلك الشرط من جانب الخليفة عثمان إحساساً منه بمسؤوليته إزاء المقاتلين المسلمين[22].

وتمدنا مصادرنا بأخبار طريفة حول تفقد الخلفاء الراشدين لأحوال الرعية. فقد كان من عادة الخليفة عمر التجوال ليلاً ونهاراً لتعرّف أحوال رعيته وكان يلمس بنفسه هموم الناس ويشرع بمعالجتها، الأمر الذي جعل الخليفة عمر يتحسس مشكلات الرعية أكثر من الوسطاء والعيون الذين حرص الخلفاء الأمويون والعباسيون على بثّهم بين الناس لنقل أخبارهم. وتلك ميزة الحكم الراشدي الذي يتسم بالصبغة الجمهورية[23]. واتبع الخليفة علي رضي الله عنه ذات الأسلوب المتبع في عهد الخليفة عمر، وكان يمشي في الأسواق ويراقب عمليات البيع والشراء، متفقداً أحوال الرعية بنفسه، على الرغم من المشاغل التي أثقلت كاهله[24]. وكان في نية الخليفة عمر رضي الله عنه أن يقيم شهرين في كل مصر من الأمصار، حيث تعرض له مشكلات الرعية، ويسهم في حلّها، لا سيما أنه كان دائم الترداد لقوله: «لو ضاع بعير في شاطىء الفرات لخفت أن يسألني الله عنه»[25]. وهذا حسّ مرهف في النظر إلى الخلافة بأنّها مسؤولية ثقيلة

---

(21) البلاذري، المصدر السابق، ص157.

(22) البلاذري، المصدر السابق، ص135/ 136.

(23) إبراهيم بيضون، ملامح التيارات السياسية في القرن الأول الهجري، دار النهضة العربية، بيروت، 1979، ص148 وما بعدها.

ينظر: الطبري، المصدر السابق، ج4، ص205.

(24) الطبري، المصدر السابق، ج5، ص156 وما يليها.

(25) نفس المصدر السابق، ج4، ص203.

تجاه ربّه والرعية. وكان الخليفة عمر يوصي عمّاله بأن لا يجعلوا بينهم وبين الرعية أبواباً حتى لا يكون ذلك حاجزاً يصد عنهم الرعية، ذلك لأن وجودهم هو في الأساس لخدمة الرعية، وعليه فإن وجودهم هو لقضاء حوائج الناس وحل مشكلاتهم. وكان عمر يكره من عمّاله التعالي على الرعية، أو أن يذل الناس بمعاملة الولاة فكان يقول: «إني لم أرسل عمالي عليكم ليظلموكم أو يضربوا أبشاركم وإنما أرسلتهم ليعلموكم دينكم ويقسموا فيئكم بينكم»[26].

وعندما سأله أحد ولاته حول تطبيق العدالة بشأن الوالي الذي يتجاوز على رعيته قال عمر: «أجل وما لي لا أفعل وقد رأيت رسول الله ﷺ يقص من نفسه»[27].

ولم يستثن عمر من قصاصه ابنه، وهو فلذة كبده توخياً للعدل بين الناس من دون استثناء أو تمييز فحسب، وإنما لكي لا يفقد الحاكم محبة واحترام رعيته. وقد أصرّ الخليفة عمر رضي الله عنه على تطبيق العقوبة بحق جبلة بن الأيهم الغساني على الرغم من مكانته وعلو منزلته السياسية والاجتماعية، ذلك لأن الناس كلهم سواء في القِيَم الدينية حسب رأي الخليفة العادل عمر، وهو الأمر الذي استاء منه الزعيم الغسّاني، وفضّل اللجوء لقيصر الروم على البقاء في رحاب عدالة الإسلام وخليفة المسلمين عمر رضي الله عنه[28].

إن الخليفة عمر رضي الله عنه كان لا يتحرّج من محاسبة عمّاله إذا ما ورد إليه خبر عن ازدياد ثروتهم الشخصية. فكان أول خليفة قد سنّ مبدأ المقاسمة أو المشاطرة لأموال الولاة، كما فعل ذلك مع والي مصر عمرو بن العاص، ووالي البحرين أبي هريرة وغيرهم[29].

ومن جهته فإن الخليفة عليّاً كان شديداً في مراقبة عماله وفي محاسبتهم،

---

(26) نفسه، ج4، ص204.

(27) نفس المصدر والصفحة.

(28) البلاذري، فتوح البلدان، ص142.
وعن موقفه من ابنه ينظر: القاضي أبو بكر بن العربي (ت: 543هـ)، العواصم من القواصم، تحقيق: محب الدين الخطيب، المطبعة السلفية، القاهرة، 1975، ص93 وما يليها.

(29) اليعقوبي، المصدر السابق، ج2، ص157.

ولو كلّفه ذلك نفورهم منه وابتعادهم من صفّه، كما فعل مع الأشعث بن قيس الكندي الذي كان عاملاً على أذربيجان، أو مع ابن عمه عبد الله بن عباس أو مع مصقلة بن هبيرة[30].

وأصبح المثل السائر في توفر العدالة، وسريان حكمها بين الناس في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه بقول الناس للولاة من بعد انتهاء عهد الخلفاء الراشدين: «لدرة عمر أهيب من سيفكم»[31]. وإن دلالات هذا القول الجامع كافية لفهم روح العصر الذي عاشت فيه الرعية وهي تنعم بالأمان والعدل والمساواة بدون إكراه أو لجوء إلى لغة السيف والقوة.

الخاتمة

كان الخليفة عمر بن الخطّاب رضي الله عنه غالباً ما يردد بأن الخليفة أبا بكر الصدِّيق رضي الله عنه قد أتعب من بعده، ويقصد بذلك شدته في الحق واتباع مبادىء الإسلام والحرص في تطبيقها. وحاول الخليفة الراشد الثاني جهده أن يكون صورة لذلك الحاكم الإسلامي الذي لا تأخذه في الحق لومة لائم، وأن يكون تطبيق العدل قسطاساً بين الناس من دون محاباة ولا تمييز. فكان الإسلام في عهده حصناً يدخل إليه الناس ولا يخرجون منه كما عبّر عنه أحد الصحابة الكرام. وكم من مرة اعترضت الخليفة رعيته في مواقف شتى، فكان يصوب رأي الرعية لما فيه خير عامة الناس، دون أن يتحرج، مادام أن ذلك يصب في مصلحة المسلمين ولو على حساب هيبته السياسية. . فكان رده ذات مرة على اعتراض امرأة بشأن المهور: «أصابت امرأة وأخطأ عمر»[32] وقد أثبت خليفة المسلمين عمر في تلك المواقف شجاعة وتفانياً لصالح الرعية، وديمقراطية عجزت الديمقراطيات الحديثة أن تأتي ببعضها. وحري بخلفاء محمّد ﷺ أن يتبعوا سيرته العطرة ويتخذوه مثلاً يحتذى وقد سمعوه ذات مرة

(30) اليعقوبي، المصدر السابق، ج2، ص200 وما يليها.

(31) طه حسين، الشيخان، دار المعارف، القاهرة، 1978، ص154.

(32) السيد عبد الحي الكتاني، نظام الحكومة النبوية المسمى بالتراتيب الإدارية، ج2، دار الكتب العربية، بيروت، بلا. ت، ص327.

من منبره وهو يقول: **«لو أن فاطمة بنت محمّد سرقت لقطعت يدها»**[33]. فبهذه السياسات والأساليب الإنسانية كان مبدأ العدل والمساواة يطبق في دولة الإسلام فليس هناك فرق بين أسرة الحاكم والرعية أمام الله. وعلى هذا المنوال عاشت الرعية في زمن الخلفاء الراشدين في طمأنينة وعافية، فقد كان المسلمون يصلّون وراء خلفائهم وولاتهم، وكانوا لا يتحرجون في رفع شكواهم، فإن لم يجدوا رداً سعوا إلى الخليفة فرفع عنهم الحيف، كما فعلت تلك المرأة من مصر عندما قصدت الخليفة عمر رضي الله عنه، فأنصفها، وعادت بكتاب منه لواليه عمرو بن العاص، فسلمته إياه ففضه وقرأه أمام الملأ ووضعه على رأسه علامةً على الطاعة للعدل وإحقاق الحق. وليست الطاعة من أجل سريان الظلم وبناء أعمدة الجور[34]. وليس أدل على العدل من تلك الكلمة التي فاه بها الخليفة عمر رضي الله عنه محتجاً على أحد ولاته لأنه أساء السيرة في الرعية بقوله: «متى استعبدتم الناس وولدتهم أمهاتهم أحراراً»[35]. تلك الصرخة المدوية التي أطلقها الخليفة العادل عمر بن الخطّاب رضي الله عنه، وقد وجدت أختها على لسان الخليفة علي بن أبي طالب رضي الله عنه وهو يوصي الولاة بالرفق بالرعية بدعوته لها بالانعتاق من الظلم بقوله: «لا تكن عبداً لغيرك»[36].

---

(33) جامع الترمذي، مطبعة بولاق، القاهرة، 1954، ص360.

(34) الطبري، المصدر السابق، ج4، ص205.

(35) وكيع، تاريخ القضاة، ج1، ص108.

(36) نهج البلاغة، المصدر السابق، ج2، ص95.